Thaqafat Ar. Side 8/25/05 10:39 AM Page 184

الأسلوبية و إشكالياتها

منـذر عياشـي *

إن الدرس الأسلوبي الحديث درس إشكالي، أو هو درس ولد إشكاليًا. وإنه ليكون كذلك لأن الأساس العلمي الذي يستند إليه – وهو اللسانيات – إنما يتكون من قطيعة مع المعارف اللغوية التاريخية والتطورية التي كان ينتمي إليها. وهو كذلك أيضًا لأنه، هو نفسه، يقوم على قطيعة معرفية ومنهجية مع علوم البلاغة التي كانت سائدة قبله. فالمنظور فيه قد انتقل من محور البدائل إلى محور التركيب، والمنهج عنده قد انتقل من محور الجمع والتبويب إلى محور التحليل واستنباط القوانين. ولقد يعني هذا أنه انتقل من الشيء إلى ما به يتخلق، فيحدث، فيكون.

ثم، بعد هذا وذاك، لأنه كذلك، فهو درس يثير الأسئلة ويطرحها، وليس درسًا يقرر الحقائق ويثبتها. وإن أمرًا كهذا ليدل أنه نتاج عقلانية تبحث عن نفسها ليس في الأعراف والتقاليد، والثوابت، والمألوف، ولكن في خلخلة الأعراف والتقاليد والثوابت من جهة، وفي الوقوف على المنزاح، والشاذ، والهامشي، والمعوج، والمختلف، والمتغير، وغير المألوف من جهة أخرى. ولقد استطاع بالفعل، بسبب كونه كذلك، أن يكون عقلانية تشك في أطروحاتها ذاتها وحلولها ونتائجها، لكي تتجاوز نفسها على الدوام نحو أطروحات أخرى وحلول جديدة، ونتائج مختلفة. وبهذا، فقد حافظ الدرس الأسلوبي على نفسه علمًا بين العلوم في مواجهة الهزات النقدية المستمرة.

يطرح الدرس الأسلوبي، كما أشرنا، إشكاليات عديدة، ولكنه يطرحها على أصعدة متباينة وفي ميادين متنوعة. ولقد يصح من منظور البحث العلمي أن نقف على بعض هذه الإشكاليات مع ما تثيره من أسئلة وما تطرحه من قضايا.

١- الأسلوبية وإشكالية الوجود على صعيد فلسفي

يبقى الشيء في «فراغ وجودي»، كما يبقى القول في «فراغ خطابي» إلى أن يجد كل منهما تحققه وإنجازه شكلاً: الأول في الوجود، والثاني في الخطاب. ولقد يكون شكل هذا التحقيق وشكل ذلك الإنجاز، بالنسبة إلى القول كما بالنسبة إلى الشيء، هو ما نسميه أسلوبًا، فإذا كان هذا هكذا، فهل يعد الأسلوب في

* ناقد وأكاديمي من سوريا/ أستاذ اللسانيات في جامعة البحرين

Thaqafat Ar. Side 8/25/05 10:39 AM Page 185

حدوثه «سد فراغ» بالنسبة إلى الأشياء وجوداً، و «سد فراغ» أيضًا بالنسبة إلى الأقوال خطابًا؟

لقد يعني الطرح الذي تقدم أن الأقوال، كما الأشياء تظل في حكم معدوم إلى أن تتجسد شكلاً. فكيف يكون هذا هكذا؟ إننا نعتقد، ها هنا، أن ثمة قضية تحتاج لدقتها إلى قوة جلاء، وللطفها إلى فضل بيان، ولخفائها إلى كشف وإظهار. وإنا بإضاءتها الآن لمشغولون. فلقد علمنا أن الأشياء توجد، وأن الأقوال تقوم، كل منها بما يُسِّر به وما يُسِّر له. وإذا كان هذا هو محصول بدهيات الحدوث. فسؤالنا هو ما حاجة الأشياء بعد وجودها إلى وجود، وما حاجة الأقوال بعد قولها إلى قول؟ ألم تتحقق إنجازًا؟

إن الأسلوبية، في الواقع، لا تعيد الأشياء من بعد خلق على مثال خلقها الأول، وهي إذا كانت تعيدها فإنما تعيدها جزعًا وكأنها في خلق جديد. وما كان ذلك منها إلا لأنها لا تعرف التطابق أو التماثل. وهي، بالإضافة إلى هذا، إذا كررت فإنما تكرر المختلف وليس المؤتلف. هذا من جهة، وإنها، من جهة أخرى، لتبدع كائنها وتنزله من الوجود وفي اللغة على غير مثال. والسبب لأن مجال اشتغالها هو غير مجال اشتغال لغة التواصل، بل ربما تقف على النقيض منها أيضًا. ولذا، فإن الأقوال لتبدوا، بعد أن تكون قد تأسلبت، وكأنها خلق فريد لا يظهر إلا من خلال تركيبه الخاص. ومن هنا، فهي في ظهورها تكون للغة التواصل والإخبار مباينة، وللغة التداول والاستهلاك مفارقة.

٢- الإسلوبية وإشكالية الوجود على صعيد لغوي

وهكذا، فإن للمسألة التي طرحت في الأعلى، إستطالات هنا على صعيد اللغة. ولذا، كان التثبت منها على صعيد فلسفي لا يكفي لكي نقف فيها على حدوث الأشياء وجوداً ولا على قيام الأقوال خطابًا فقط، فهذه حاصلة ببدهيات الحدوث نفسه، ولكن لا بد من النظر في كيفيات هذا الحدوث والقيام، لأن أشكال حدوث الأشياء هذه هي التي تعطي الأشياء وجودها المميز، ولأن أشكال قيام الأقوال هذه هي التي تعطي الأقوال تحققها الفريد، وكذلك لأن هذه الأشكال هي التي تمنح الأشياء والأقوال قيمًا خلافية بها يصبح الكائن الأسلوبي ذاتًا مستقلة وكينونة مفارقة. ومن هنا تأتي المسلمة التي تقول إن الوجود بكل ما فيه من أشياء، ومن أقوال، ومن مخلوقات هو وجود يتم تحققًا بالأشكال، أو هو شكل دال ومميز وليس وجوداً فقط. ولهذا، فإن منطق كل موجود إنما هو في الشكل يكون وليس في الحضور مادة، وكمًا، وحجمًا، أو هو ليس في الوجود المحض كما يقال.

ولما كانت الأسلوبية على هذا الصعيد أيضًا تمثل إشكالية وجود، فما هو الشكل الذي تتخذه، فيستدل المستدل به على الشيء وجوداً وعلى القول خطابًا؟

بداية، إن اللغة إذ تقول الأشياء لا تنقل الأشياء. ولكنها تنقل تصورًا ذهنيًا عن الأشياء. وهذه هي نظرية سوسير، ويمكن العودة إليها في كتابه «دروس في اللسانيات العامة». وإذا كان هذا هو حالها مع الأشياء، فما هو حالها مع الأقوال: هل هي تقولها، على المستوى الأسلوبي، كما يمكن لها أن تنجزها خارج هذا المستوى، أم إنها بالفعل الأسلوبي وبسببه، تقولها على نحو يجعلها لا تأخذ منها سوى متصور ذهني عنها؟ وإذا كان الأمر هكذا، فهل تكون الأقوال متصورًا ذهنيًا على مستوى أسلوبي كما تكون الأشياء متصورًا ذهنيًا على مستوى لغوي؟

لا شك، إن هذه الأسئلة تقود مباشرة إلى ضرب من النظر ينفذ مباشرة إلى إشكالية الوجود الأسلوبي على صعيد لغوي. ولعل السؤال الأخير هو السؤال الذي يتضمن تحديدًا أكثر دقة للظاهرة الأسلوبية في قلب الظاهرة اللغوية. فالظاهرة الأسلوبية تتحدد تبعًا له بوصفها متصورات ذهنية عن أشياء (أقوال) لغوية من غير أن تكون هي الأشياء (الأقوال) ذاتها.

وإن الخطاب إذا ينقل هذه المتصورات، فإنه لا ينقل ممكن وجودها ولا وجودها كما لا ينقل تعينها وإنجازها أو ممكن تعينها وإنجازها لغةً في لغة ما قبل

Thaqafat Ar. Side 8/25/05 10:39 AM Page 186

التأسلب، ولكنه ينقل متصورًا ذهنيًا عنها وينجزه لغةً على شكل أسلوب تخرج به من دائرة اللغة العامة والمشتركة إلى دائرة الأقوال الخاصة.

ويمكننا أن نقول إن بيانًا كهذا، سينقلنا، بغية توضيح فكرتنا، إلى الحديث عن أمرين، كنا قد ألمحنا إليهما في الفقرة السابقة: الأول، ويتعلق بالشكل. الثاني، ويتعلق بالأسلوبية وأنواع النظام اللغوي. ولقد نعتقد أن الحديث عن هذين الأمرين يفيد في تدقيق ما نحن بصدده:

أ- الشكل:

لقد وافقنا أن الأقوال هي متصورات ذهنية على مستوى أسلوبي، وأنها تعادل في ذلك الأشياء على مستوى لغوي، ولكن المتصورات، أيًا كانت، تظل محتاجة إلى تجسدها شكلاً لكي تكون. ولذا، فإن عبارة «مستوى أسلوبي» إذا كانت تعني ما كنا قد أشرنا إليه من خروج الأقوال من «دائرة اللغة العامة والمشتركة إلى دائرة الأقوال الخاصة»، فإن كلمة «شكل» التي يتحدد بها الأسلوب كينونة، ويتجسد في قالبها كائنًا لتحتاج منا إلى فضل بيان.

إذا عدنا إلى «القاموس التعليمي للغات» (وهو من تأليف «ر.غاليون» و «د. كوست») (ص٢٣٥-٢٣٩)، فسنجد أن كلمة «شكل» تشير بداية إلى «القالب». ولقد نعلم أن من خصائص القالب (وهو مصنوع لهذا خصوصًا) أن يعطي المواد، التي لا شكل لها وليس ثمة إطار يحدها، شكلاً به يكون تجسدها. ولقد كان بالإمكان أن نقول إن الأسلوب يفعل فعل القالب مع متصورات الأقوال. وهذا أمر صحيح وكنا في الأعلى قد ذكرناه، ولكن الكلمة «شكل» تحمل من المعاني عديدها، وإنه لبالعودة إلى هذا القاموس، يمكن إجراء تصنيف لها بالاستناد إلى كلمات أخرى تعارضها فيما هي تكوِّن معها أزواجًا. وإذا وقفنا على هذا الأمر معاينين فسنجد أن كلمة «شكل» تتعارض مع خمس كلمات أخرى، وتكوِّن، في الوقت نفسه، مع كل كلمة منها زوجًا على حدة. ويمكننا، بيانًا لهذا، أن نمثلها في الترسيمة التالية:

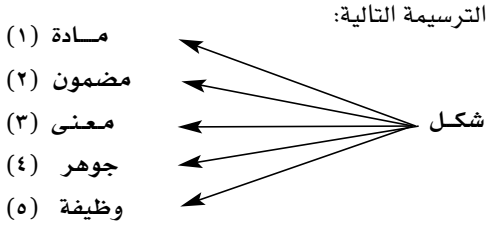

وإذا كان هذا هكذا، فيمكننا أن نتساءل عن ماهية الأقوال المتصورة، هل هي «مادة»، أو «مضمون»، أو «معنى»، أو «جوهر»، أو «وظيفة». بيد أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذا التساؤل هو من النوع الذي يساهم في التدقيق النوعي للماهيات، وإنه ليساعد في الواقع على تحديد ما تكونه متصورات الأقوال حين تتجسد أسلوبًا بوساطة الشكل. ولذا، إذا كان لا بد من جواب نصدره، على عجالة، حول ماهية متصورات الأقوال في دقيق ماهياتها، فإننا نقول إنها تتمثل في هذا كله، كليًا أو جزئيًا. وإن الشكل الذي تتنزل فيه، هو الذي يخرجها جسدًا نصيًا له ظاهر صوتي وتركيبي وباطن دلالي، وهو الذي يقوم بتمييزها، بعضها من بعض، ويجعل كل زوج منها في بابه فردًا بما يهب له من قيم خلافية.

قد نحتاج، لكي نتقدم بهذه الإشكالية خطوة أخرى إلى الأمام، إلى أسئلة مُلَخِّصَةٍ ومُوجِزَةٍ، وأخرى تفتح الآفاق أمام مفاهيم وتصورات قادمة أو يمكن استقدامها سدًا لهذه الحاجة وإشباعًا لها. وإن السؤال الذي يواجه العقل مباشرة بعد هذا التقرير هو: هل الشكل هو فيصل الشيء بين أن يكون أو أن لا يكون، وهل هو فيصل القول بين الظهور وعدمه؟ وإذا كان الأسلوب هو هذا الفيصل، فهل هو شكل تظل الأشياء والأقوال من دونه في حكم معدوم إلى أن يجليها؟ ثم إنه لمن ملحقات هذه الأسئلة أن نسأل أيضًا: هل يتساوى أن يكون الشيء والقول شكلاً وظهورًا؟ أليس في الأسلوب روح تكون في الأقوال ولا يماثلها شيء في الأشياء؟ وهل الشكل والظهور معنيان لشيء واحد، مما يستتبع أن يكونا من معاني الأسلوب أو من أحداث وجوده؟

Thaqafat Ar. Side 8/25/05 10:39 AM Page 187

هذه أسئلة حمل التقرير السابق بعض الإجابات عليها، ويبقى، مع ذلك، أن ننظر ماذا يحمل الشق الثاني من وقفتنا من أجوبة إضافية عليها، ولكن أيضًا وخصوصًا من أسئلة أخرى.

ب- الأسلوبية وأنواع النظام اللغوي

يتمثل النظام اللغوي في ثلاثية بها يقوم الوجود اللغوي، وبها يتم كمالاً وتمامًا:

❖- إنه نظام تمثيلي. ونحن نضعه لأنفسنا لكي نرى العالم من خلاله، فنفهمه، ونقوى على العيش فيه، أو على السيطرة عليه.

❖- وهو نظام تواصلي، لأنه أداة ارتضتها عقولنا لكي يقوم بها اجتماعنا. ولقد يقوم التواصل بغيره بين المجموعات البشرية (كقرع الطبول، واستخدام النار، أو الدخان، أو إشارات المرور، أو علامات البحرية، إلى آخره) ولكنه النظام العلامي الأرقى والأمثل.

❖- وهو، أخيرًا، نظام إبداعي. فنحن به نجعل الخلق كائنًا بعد أن لم يكن سواء كان ذلك في الطبيعة أم في اللغة.

وتستند هذه الأنظمة الثلاثة إلى مراتب ثلاث تتكامل معها وبها تكون:

١. هناك مرتبة نستعمل فيها النظام اللغوي لكي نضع بوساطته في الطبيعة كينونات لم تكن فيها أصلاً ولا هي من خلقها. وهذا أمر لا يحتاج المرء فيه إلى دليل، فوجودنا الحضاري كله شاهد على ذلك.

٢. وهناك مرتبة نستعمل فيها النظام اللغوي لكي نضع بوساطته خلقًا في اللغة لم يكن فيها أصلاً، ولكنه ينقل من الطبيعة متصورًا ذهنيًا ليكون إنجازًا لغويًا، وأداء كلاميًا، وتعيينًا لسانيًا.

٣. وهناك، ثالثًا وأخيرًا، مرتبة نستعمل فيها النظام لكي نضع بوساطته خلقًا جديدًا لا تقوى الطبيعة أن تجسده كائنًا، فيبقى والحال كذلك قائمًا في اللغة وحكمه في غيرها مستحيل وجودًا. وإننا كثيراً ما نجد في الشعر، وفي النثر، وفي القرآن مثل هذا الخلق المستحيل مثلاً.

وكما بدأنا الفكرة الأسلوبية أول مرة بأسئلة، فإننا نعيدها بأخرى نطرق بها باب المعرفة اللغوية. ولقد نظل كذلك إلى أن يخرج علينا منه علم ما نحتاج إليه في مذاكرتنا هذه. وأسئلتنا ستبدأ مستندة إلى ما تقدم، ومبحرة باتجاه مجهول نبتغي معرفته، وكشف ظلماته، والوقوف على مكنوناته. ولذا، نرى لزامًا أن نبدأ بالسؤالين التاليين: ما هو موقع الأسلوب في النظام اللغوي؟ هل هو تمثيلي، أو هو تواصلي، أو هو إبداعي؟ ثم قبل كل شيء هل الأسلوب نظام؟ وأما سؤالنا الثاني، فهو: إذا كان الأسلوب نظاماً، فما هي المرتبة التي يُستعمل فيها النظام الأسلوبي أداء لوظيفته وإظهارًا لكائنه؟

ويمكننا القول، على هذا الصعيد من الأسئلة، إن الأسلوب نظام متنقل المواقع:

١. فهو يقع، تارة، في إطار النظام التمثيلي وبالتطابق معه. فإذا وقع هذا الموقع، فإننا (كما قلنا) نرى العالم من خلاله، ونستعمله حينئذ لكي نضع بوساطته في الطبيعة كينونات لم تكن فيها أصلاً ولا هي من خلقها. وإن هذا ليفضي بنا غالبًا إلى إعادة بناء العالم. ولذا، فإننا عندما نتكلم هنا عن الأسلوب، فإننا نتكلم أيضًا عن أسلوب حضارة من الحضارات، وعن أسلوب عصر من العصور، وعن أسلوب أمة من الأمم.

٢. وقد يقع النظام الأسلوبي في إطار النظام التواصلي وبالانسجام معه. فإذا وقع كذلك، فإنه يكون أداة ترتضيها عقولنا لكي يقوم بها اجتماعنا. ولكننا قد نستعمله، تعزيزًا لاجتماعنا، لكي نضع بوساطته خلقًا في اللغة لم يكن فيها أصلاً. وإنه لا يبدو، والحال كذلك، شيئًا مضافًا على الكينونة اللغوية، بقدر ما يبدو شيئًا أصيلاً فيها. وإن هذا لينطبق على كل مجازات الحياة اليومية أو على كل أدوات الحياة اليومية ذات المسميات المجازية والتي لا تبدو لمستعمل اللغة أنها مجازات، ومن ذلك مثلاً: «شربت من ماء العين»، أو «أصلحت رجل الكرسي»، أو «كسرت يد

Thaqafat Ar. Side 8/25/05 10:39 AM Page 188

المقعد وظهره»، إلى آخره. ونلاحظ أن كل عبارة من هذه العبارات تتناسب مع متصور ذهني، وأنها، بسبب هذا، تتجسد إنجازًا لغويًا، فأداء كلاميًا، فتعيينًا لسانيًا. ولكن الأمر، في إطار النظام التواصلي، لا يقف عند هذا الحد. فقد يبدو النظام الأسلوبي الذي يقع في إطاره بعيدًا عن أي أثر تعبيري. ولذا، فهو يبدو، والحال كذلك، في الدرجة صفر من التعبيرية إزاء ذاته. وهو بهذا لا يكون مُمَيِّزًا بنفسه، ولكنه يكون أداة الأقوال الأسلوبية في تمييزها لنفسها إزاءه. وهذا ما يجعلنا نتكلم، بسبب التمايز منه، عن حدوث الصدمة ووقوع المفاجأة حين يتوازى حضورًا هو والأسلوب التعبيري في نص من النصوص الروائية أو المسرحية التي تنجز نفسها في إطار اللغة التواصلية وبإزائها في الوقت نفسه.

٣. وهو يقع، تارة ثالثة، في إطار النظام الإبداعي وبالتفاعل معه. فإذا كان ذلك، فإننا نجعل به الخلق كائنًا بعد أن لم يكن، ونستعمله لكي نضع بوساطته خلقًا جديدًا لا تقوى الطبيعة أن تجسده كائنًا. فيبقى، حينئذ، في اللغة قائمًا وحكمه في غيرها مستحيل وجودًا. ولقد نعلم أن هذا الضرب موجود في النثر، وفي الشعر، وفي القرآن. وهو على العموم نظام يقع خارج إطار النظام اللغوي أو على أطرافه، أو على هوامشه. وإنه ليكون، في كل الأحوال، خروجًا عن المألوف.

والسؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى بهذا الصدد، هو سؤال الطريقة والوجود. فهل الأسلوب هو طريقة ينجز بها شيء من الأشياء نفسه وقول من الأقوال ذاته، أم هو الشيء ذاته والقول نفسه؟ أي هل هو الوجود بما هو وجود؟

يميل المرء إلى القول إن الشيء لا ينفصل عن طريقته وكذلك القول، فهو لا يعرف بهذا الشأن انفصالاً. والسبب لأن الطريقة هي إكمال للشيء، وإتمام للقول. وعلى هذا، فهي جزء منه، شأنها في ذلك شأن كل الأشياء التي اكتملت معمارًا، وشأن كل الأقوال التي تمت كلامًا. فنحن مع المعمار لا نستطيع أن نفصل هيكل الشيء عن عناصره، ونحن مع الكلام لا نستطيع أن نفصل بنية القول عن مكوناته. (وإن كنا على صعيد المتصور والمنهج نفعل ذلك، لأن هذه هي عقلانية المعمار وعقلانية البنية). ولقد يعني هذا أننا أمام نسق كلي يشكل وحدة واحدة وغير قابلة للتجزيء. وإن المهم في النظر إلى الأسلوب على هذا الأساس، هو اعتماد الأسلوب بوصفه نسقًا، وكلاً واحدًا. ومن هنا، فإن الأسلوبية تذهب إلى قراءة كائنها بذاته، وليس إلى قراءة كائنها بغيره. ولما كان الحكم فيها موكولاً إلى قضاء هذا هو قانونه، فقد وجب عليها أن تستقل بنفسها عن البلاغة. ذلك لأن هذه الأخيرة تقرأ الشيء بغيره، وهذا هو معنى استخدام التشبيه فيها، ولا تقرأه بذاته. وما كان ذلك منها إلا لأنها تنتمي إلى عقل البدائل. ومن هنا، فإن الكائن الأسلوبي هو كائن «ممتلئ وجودًا» من جهة، و«ممتلئ خطابًا» من جهة أخرى. وإنه ليكون كذلك خلافًا للكائن البلاغي الذي هو «ناقص وجودًا» و«ناقص خطابًا». وهذا ما يفسر كونه يقرأ بغيره لا بذاته في محاولة لإتمام خلقه، ولكن أنى يكون له ذلك والبلاغة هذه هي سبيلها في صناعته وقراءته.■